

جمالية التلقي في الدرس الإعجازي القديم

The aesthetics of reception in the ancient miraculous lesson

(1) محمد حمداني

جامعة أحمد زبانة غليزان، (الجزائر)

hamdanimed84@gmail.com

(2) حبيب بوهراوة

جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف، (الجزائر)

hebibbouhraoua@gmail.com

تاريخ النشر: 2025/06/07	تاريخ القبول: 2024/12/20	تاريخ الإرسال: 2024/11/09
-------------------------	--------------------------	---------------------------

المخلص

شكل الدرس الإعجازي القديم منعرجا مهما في إبراز مواطن الجمالية في النص القرآني ومن ثمة أحدث كبير الأثر في المتلقي العربي مع كل الظواهر الأسلوبية التي رصدها في بعديها البلاغي والنقدي، ولعب الدرس الإعجازي الدور الكبير في إثراء فكرة "التصوير" و"التخييل" في القرنين الرابع والخامس هجريين، خاصة مع الجرجاني والزمخشري، ما يجعل هذه الظاهرة الأسلوبية تنطبق على القرآن العظيم بشكل أوسع وأعم، كما هو الحال مع فواتح السور أو مع الإيقاع أو الفواصل القرآنية أو التشبيه وأضرابه مع غيرها من الظواهر التي رصدها الدرس الإعجازي القديم، والتي تحاول هذه الدراسة الوقوف عندها وتجليتها.

الكلمات المفتاحية: الدرس، الإعجاز، البلاغة، الفاصلة القرآنية، الإيقاع، الجمالية

Abstract

The ancient miraculous lesson was an important turning point in highlighting the aesthetic aspects of the Quranic text, and thus had a great impact on the Arab recipient with all the stylistic phenomena that it observed in its rhetorical and critical dimensions. The miraculous lesson played a major role in enriching the idea of "depiction" and "imagination" in the fourth and fifth centuries AH, especially with Al-Jurjani and Al-Zamakhshari, which makes this stylistic phenomenon apply to the Holy Quran in a broader and more general way, as is the case with the openings of the surahs or with the rhythm or the Quranic intervals or the simile and its types with other phenomena that the ancient miraculous lesson observed, which this study attempts to stand at and reveal.

Keywords: Lesson, miracle, rhetoric, Quranic interval, rhythm, aesthetics

1. مقدمة:

قد أتى حين من الدهر على البشرية وهي تائهة ضالة على بسيط الأرض تعيش في بحار من الظلام وتسير في غمرة من الأوهام ، ثم شاء الله أن يبعث فيهم رسولا منهم يخرجهم من الظلمات إلى النور، نور الإسلام فتداعى الناس إليه ، وهرعوا يتعلمون القرآن، قراءة وحفظا وعملا به، فكان القرآن معجزا ظاهرا وباطنا في حروفه وكلماته وفي آياته وسوره ، فراح الدرس الإعجازي مكاشفا عن مكامن جماله ومواطن إعجازه بمقاييس البلاغة وموازين الفصاحة، فعلموا البلاغة والنقد والإعجاز، قد وضعت للكشف عن مظاهر البلاغة القرآنية وأسرارها، ومن ورائها جمالية تلقيه.

ومحاولة منا الوقوف عند جمالية تلقي القرآن العظيم من خلال بحوث الإعجاز عند القدامى، ومن خلال ما وقع في نفوسهم من آثار القرآن العظيم استندنا إلى جملة من المقومات تجلت فيها جمالية تلقي كلام العزيز المتعالي.

2. الإيقاع وحسن الأداء :

ويقصد به نظم القرآن البديع الذي نظمت فيه معانيه والتي جاءت في أروع صور من صور الأداء ، وأتم وضع من أوضاع نظم الكلام ، على وجه تألفه العرب فاستثار شعورهم وعجزوا على أن يأتوا بمثله ، وأثر فيهم عربا وعجما ، حتى "إنّ لقوله لحلاوة ، وإنّ أصله لعذق، وإنّ فرعه لجناه ، كما علّق الوليد عن المغيرة ، فهو تعليق يضعنا أمام أول نص يكشف لنا عن ناتج الواقع في الذات المتلقية ... ولا شك أن ابن المغيرة يعدّ قارئاً عارفا مختصا انتدبته قرش لمهمة معرفة النص الجديد"

1

فالجانب الإيقاعي أحد مظاهر الإعجاز التي من شأنها التأثير على من يقرأ أو يسمع القرآن العظيم ، ولذا ما يستحب للقارئ تحسين اللفظ وتزيين الصوت بقراءة القرآن ، حتى يتلقفه المتلقي بأذن صاغية عملا بما نصّ به حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم "زينوا القرآن بأصواتكم"، فالقرآن لا يصل إلى منتهاه من روعة التأثير إلّا بتلاوته وسماعه ، ومن أجل هذا كان قوله سبحانه ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾² ، بل وكان الأمر بترتيبه ترتيبا ، لا كيفما اتفق ، حتى يتم وقعه ، ويعظم أثره ، قال الله تعالى: ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾³، أي بينه تبيينا ، وفصله تفصيلا ، بقراءته على ترسل وتؤدة ، بتبيين الحروف وإشباع الحركات ، فذلك أعون على تأمله ، وأثبت لمعانيه في القلب ...⁴.

ويرى أبو بكر البقلاني أنّ للكلمة القرآنية فصاحة خاصة بأدائها وبمدها وبغناها وبأصواتها النغمية، فهي عنده غرة في كلّ كلام ، وأنّ لها رونقا ، وأنّ لها دخلا في إعجازه ، وأنّ صورة الكلمة ومخارج حروفها لها روعة ذاتية ، لأنّ ذلك من عند العزيز الحكيم ، "إنّ ما يبين ذلك ، بأن تتصور هذه الكلمة مضمّنة بين أضعاف كلام كثير ، وأخطاب طويل، فتراها ما بينها تدل على نفسها ، وتعلو على ما

قد قرن منها لعلّ جنسها ، فإذا ضمت إلى أخواتها ، وجاءت في ذواتها ، أرتك القلائد منظومة ، كما كانت تريك عند تأمل الأفراد منها اليواقيت منثورة والجواهر مبثوثة⁵

واهتم القراء بالناحية الموسيقية للقرآن ممّا يجعل له أثراً فعّالاً في النفوس ، وذلك لما في النسق الصوتي والترابط بين الكلام وانسجام النغم ، وتوافق الفواصل في أواخر الآيات فعن قوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾⁶ ، يقول : "أنّ جنتان بمعنى الأفراد، وهو ما عدل إليه القرآن مراعاة للنظم ، كما يراعى ذلك في الشعر لمراعاة الوزن والقافية"⁷

وما يمكن استنتاجه مما سلف ذكره: أنّ للألفاظ جمالا وأثرا في نفس المتلقي، وإنّها في النظم القرآني تكون لإيقاعاتها إسهامات في جودة التعبير وحسن نسجه.

3. الفاصلة القرآنية :

يعرف أبو الطيب البقلاني الفواصل على أنّها "حروف متشاكلة في المقاطع يقع بها إفهام المعنى"⁸

والفاصلة مصطلح خاص بالقرآن، حيث كان لها الدور الكبير في انقياد النفوس مستسلمة لتعاليم القرآن الكريم، وتشوّق الآذان لسماعه فشهدت الألسن بما له من سحر التأثير، وروعة البيان وكمال الإعجاز.

والفواصل على وجهين عند الروماني متجانسة ومتقاربة، فالمتجانسة كما قوله تعالى: ﴿وَالطُّورُ (1) وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ (2) فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ (3) وَاللَّيْلِ الْمَعْمُورِ (4)﴾⁹، أمّا المتقاربة، فكقوله تعالى: ﴿الرحمن الرحيم، ملك يوم الدين﴾¹⁰، فالميم والنون حرفان متقاربان، وإنّما يحسن المجيء بحروف متقاربة في الفواصل.

وذهب بعض جمهور القدامى إلى نفي السجع عن القرآن ، أمثال الرماني والبقلاني فقال هذا الأخير " وذهب أصحابنا كلهم إلى نفي السجع عن القرآن...ولو كان القرآن سجعا ، لكان غير خارج عن أساليب كلامهم ، ولو كان داخلا فيها لم يقع بذلك إعجاز"¹¹، وعدّ الرماني الأسجاع عيب في حين أنّ الفواصل بلاغة ، ذلك أنّ الفواصل تابعة للمعاني ، أمّا الأسجاع فالمعاني تابعة لها.

أما الزمخشري فيذهب إلى أنّ الفواصل القرآنية مزيّة " يتحد نغمها الصوتي في العديد من السور وفي ذلك تأثير يبلغ مداه في نفس قارئه وسماعه "¹² ، وجاء عنه في قوله تعالى : "ربنا إنّنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا " (13) : " وزيادة الألف لإطلاق الصوت ، جعلت فواصل الآي كقوافي الشعر ، وفائدتها الوقوف والدلالة على أنّ الكلام قد انقطع وأنّ ما بعده مستأنف"¹⁴

ومنه فإنّ الفواصل إحدى مظاهر الإعجاز التي ميزت القرآن عن سائر الكلام ، زادت من جماليته ورونقه.

4. فواتح السور:

لقد افتتح الله تعالى سور القرآن الكريم بأساليب شتى ، فمنها ما افتتحت بفعل وأخريات باسم وبعضها بقسم نحو " والعصر " وبعضها الآخر افتتح بحروف وفي ذلك وقع الغموض والإعجاز ، إذ افتتح الله سبحانه خطابه بأساليب هي بعيدة كل البعد عن مألوف الخطاب العربي ، جاءت على شكل حروف مقطعة نحو قوله تعالى : " ألم " فاتحة سورة البقرة وغيرها ، وقوله : " ألمص " فاتحة سورة الأعراف ، وقول سبحانه : " ألر " في سورة يونس ، وسورة هود ، وغيرها وكذلك قوله تعالى : " كهيعص " في سورة مريم ، وقوله تعالى : " طه " فاتحة سورة طه ، وقوله " طسم " فاتحة سورة الشعراء وسورة القصص ، وأيضا فاتحة سورة النمل في قوله : " طس " و " يس " في سورة يس ، " ص " فاتحة سورة ص ، وقوله : " حم " فواتح غافر وغيرها ، وقوله تعالى : " حم عسق " افتتح بها سورة الشورى ، وقوله تعالى " ق " في سورة ق ، " ن " في سورة القلم ، وإن افتتح سور القرآن الكريم بحروف مقطعة هو وجه من وجوه إعجازه. ولتلك الحروف وقع وجمالية حين تلقيها ، فهي تحمل الكثير من الشحنات الروحية وإيقاعية تستهوي نفوس المتلقين ، فجاءت مكررة أغلبها لأن "إعادة التنبية على أن المتحدى به مؤلف منها لا غير ، وتجديده في غير موضع واحد أوصل إلى الغرض وأقر له في الأسماع والقلوب من أن يفرد ذكره مرة ، وكذلك مذهب كل تكرير جاء في القرآن" (15)

5. جماليات البيان في القرآن الكريم:

1.5. التشبيه وجماليته في القرآن:

يذهب الرماني إلى تشبيهات القرآن الكريم ، تختلف عن تشبيهات العرب بكثرة المعاني المستنبطة منها ، وبسلاستها في النطق والسمع ، ويعرف التشبيه على أنه "العقد على أحد الشئين يسد مسد الآخر في حسن أو عقل ، ولا يخلو التشبيه أن يكون في القول أو في الأنفس، ... و ذلك أنه يكسب الكلام بيانا عجيبا وهو على طبقات في الحسن" (16). وذكر أعلى طبقة من التشبيه الذي ورد في القرآن الكريم.

يذهب عبد القاهر الجرجاني إلى تشبيهات القرآن الكريم فيقف على جماليته وحسن تأثيره بقوله " وإذا بحثنا عن ذلك - يعني تأثير التمثيل - وجدنا له أسبابا وعلا - كل منها يقضي أن يفهم المعنى بالتمثيل ينبل ويشرف ويكمل ، فأول ذلك وأظهره على أن أنس النفوس موقوف على أن يخرجها من خفي إلى جلي... وأن ترددها في الشيء تعلمها إيّاه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم " (17) ، أي أن من جمالية التشبيه أن يخرج غير الظاهر إلى الأظهر مع حسن التأليف و البيان فيه .

ومن لطائف التشبيهات التي وقف عليها الرماني في قوله تعالى : "وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالَهُمْ كَسَرَابٍ بَقِيعةٌ يَحْسِبُهُ الضَّمَانُ ماءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا"⁽¹⁸⁾ ، وهو تشبيه فيه إخراج مالا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه ، ويشير الرماني في هذا الباب إلى دقة اختيار القرآن الكريم لألفاظه في التعبير على المعنى المراد بصورة أقوى وأبلغ.

أما عن قوله تعالى: "إِنَّ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصِرًا فِي يَوْمٍ نَحْسُ مُسْتَمِرٍّ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مَنْقَعَرٍ"⁽¹⁹⁾ ، فهذا تشبيه أخرج مالم تجر به العادة إلى ما قد جرت به، ففي الآية دلالة على عظيم القدرة والتخويف من تعجيل العقوبة.

وعلى كل فتشبيهات القرآن الكريم ، إنما جاءت لتقرير حال المشبهات وتمكينه في نفسية المتلقي سواء أكان حسيا أو معنويا ، بالإضافة إلى جمالية التصوير التي احتوتها.

2.5. الإستعارة :

عرفها عبد القاهر الجرجاني بأن لها صلة بالتشبيه ، حيث قال: " أما الاستعارة في ضرب من التشبيه، ونمط من التمثيل، والتشبيه قياس، والقياس يجري فيما تعيه القلوب، وتدركه العقول وتُسْتَفْتَى فيه الأفهام والأذهان ، لا الأسماع والأذان"⁽²⁰⁾ .

من ثم فان للاستعارة محاسن جمالية لا توجد في غيرها من أدوات البيان إذ بها يتم شرح المعنى وفضل الإبانة عنه وتأكيده والمبالغة فيه فهي بذلك أبلغ من التشبيه.

وفيما يلي بعضا من الاستعارات التي وفق عليها الزمخشري تبيانا لقدرتها على التصوير والتشخيص للمتلقى ، ويظهر ذلك في شرحه لأساليبها ، يقول في قوله تعالى: "وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا"⁽²¹⁾ ، فإله "جعل كل واحد منهما في صورة الباغي على صاحبه فهو يتعوذ منه وهي من أحسن الاستعارات وأشهداها على البلاغة"⁽²²⁾ ، وكمثال آخر عن قوله تعالى: " و لَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبَ "⁽²³⁾ " هذا مثل كأن الغضب كان يغريه على ما فعل ويقول له : قل لقومك كذا وألق الألواح وجُرْ برأس أخيك إليك ، فترك النطق بذلك ، وقطع الإغراء"⁽²⁴⁾ ، فكان للنفس أن تهتز لروعة هذه الاستعارة وجمالية وقعها .

ومن صور الاستعارة الجميلة ما جاء في قوله تعالى : " واشتعل الرأس شيبا "⁽²⁵⁾ ، أصل الاشتعال للنار وهو في هذا الموضع أبلغ وحقيقته كثرة شيب الرأس ، إلا أن الكثرة لما كانت تتزايد تزيادا سريعا...صارت كاشتعال النار ...وهذا نوع من التخيل البديع ، يتمثل في تلك الحركة الممنوحة لما من شأنه السكون فهذه الحركة أنتت معبرة ومصورة فيها حياة وفيها جمال كما أن للاستعارة دقة نظم ، وبراعة تنسيق ، وإحكام تأليف حتى قيل عن هذه الآية " وإذا أردت أن تكحل بصرك بمرود التخيل والاطلاع

على لطائف الإجمال والتفصيل فائق قوله تعالى حكاية عن زكرياء عليه السلام " قال رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي واشتعل الرأس شيباً " (26).

ولأنّ الاستعارة إحدى الأساليب البلاغية التي من شأنها حُسن الكلام ، ودقة التصوير ، وقوة التأليف ومظهر من مظاهر إعجاز القرآن ، كان ولا بد أن تؤثر على المتلقي وتستهوّه بملامسة خياله.

3.5. الإيجاز في القرآن وجماليته :

تحدث الجاحظ عن الإيجاز في القرآن الكريم وعرفه بأنّه "الجمع للمعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة ، منها قوله تعالى حين وصف أهل الجنة " لا يصدّعون عنها ولا ينزفون " (27) وهاتان الكلمتان قد جمعتا عيوب خمر أهل الدنيا ، وقوله تعالى حين ذكر فاكهة أهل الجنة "لا مقطوعة ولا ممنوعة " (28) ، جمع بهاتين الكلمتين جميع تلك المعاني " (29)

أمّا إيجاز القصر فهو "بنية الكلام على تقليل اللفظ وتكثير المعنى من غير الحذف" (30) وهذا النوع من الإيجاز يكون غامضاً مقارنةً بسابقه الذي هو أقل منه درجة نحو قوله تعالى : "ولكم في القصص حياة" (31).

ومما سبق نستنتج أن الإيجاز هو أسلوب بياني ينبع جماله وتألقه من مهارة التعامل مع الألفاظ والمعاني والقدرة على المقابلة بينها، فقد كان له الأثر العجيب في نفوس وقلوب مستمعي القرآن الكريم فتخشع و تتقاد له صاغرة طائعة مستسلمة وإنّ هذا لمن جمالية تلقي القرآن. ولذلك فإنّ الإيجاز في أسلوب العرض، الذي

4.5. الكناية وجماليته في القرآن :

تعدّ الكناية طريقة من طرائق البلاغة ، "دقيقة التعبير والتصوير، تأتي بالفكرة مصحوبة بدليلها وتأتي بالقضية وفي طيّها برها . ومما لاشك فيه أنّ ذكر الشيء يصحبه برهانه أوقع في النفس وأكد لإثباته" (32). حتى يمكنه التعبير عن القبيح لما تسيغ الأذان لسماعه ، وهذا من أسرار بلاغتها.

ومن روائع ما ذكر من الكناية في القرآن الكريم ، قوله تعالى : "نساءكم حرث لكم" (33) لقد كنّى الله تعالى في هذه الآية بكلمة "الحرث" عن المعاشرة الزوجية ، إنّ هذه الكناية الفردية ممّا انفرد به القرآن الكريم فهي لطيفة ، دقيقة ، مصورة ، مؤدبة ، مهذبة ، فيها من روعة التعبير وجمال التصوير" (34)، فجمالية الكناية ومحاسنها : أن يستطاع التعبير بها عن الألفاظ والمعاني غير المستحسنة بألفاظ تستلذها الأذواق ولا تمجها الأسماع، كقوله تعالى : "كانا يأكلان الطعام" (35) ، وإنّما هي كناية عن قضاء الحاجة، وقوله تعالى : "ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كلّ البسط فتقعد ملوما

محصوراً⁽³⁶⁾، فيها التعبير عن البخل باليد المغلولة وعن التبذير والإسراف باليد المبسوطة ، وفي ذلك روعة في التصوير لما هو معنوي بما هو محسوس.

فالكناية إحدى ضروب الخطاب القرآني ، أراد بها الله أن يعجز الخلق بكلامه، كما لها من قوة تأثير في الذات المتلقية لهذا الكلام بما تحمله من معاني مشحونة وألفاظ متقونة.

6. تفسير الكشاف للزمخشري وجمالية القرآن :

يعد الزمخشري⁽³⁷⁾ من فحول أهل البلاغة الذين تجلّى البيان عندهم من خلال تفسيره "الكشاف" ، هذا الذي كاد المطلع عليه يجزم أنه خير تفسير في العربية ، حيث تحدث فيه عن سرّ نظم القرآن العظيم وبلاغته وإعجازه وروعة أدائه ، إذا تطالعنا شخصية مؤلفة في ثنايا تفسيره "الكشاف" فهو "إن فسّر أديب ذوّاق للمعنى وجماله ، ولأسلوب وحلاوته ، وإن فضّل قراءة ، فضلها لجمال معناها وأسلوبها ، وإن عرض للنحو عرض له عرض من يقدر الجمال معنى ولفظاً"⁽³⁸⁾.

فالزمخشري كما اتفق على ذلك معظم الدارسين و الواقفين عند ما تحمله كتب التفسير من أسرار واحد من القلائد الذين امتلكوا آلات التفسير خير امتلاك ، وفسروا القرآن الكريم خير ما يكون التفسير ، لولا أنه حشاه بأرائه ذات المذهب الاعتزالي ، على حد قول ابن خلدون في مقدمته " فيأتي بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة ، حيث تعرض له في آي القرآن من طرق البلاغة ، فصار ذلك للمحققين من أهل السنة انحراف عنه وتحذير للجمهور من مكانه مع إقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة"⁽³⁹⁾. ومما أخذ على الكشاف أن صاحبه كان يلوي معاني المفردات من الحقيقة إلى المجاز في كثير من المواضع.

1.6. جمالية التصوير في القرآن:

يلعب الدرس الإعجازي الدور الكبير في إثراء فكرة "التصوير" و"التخييل" في القرنين الرابع والخامس هجريين ، خاصة مع الجرجاني والزمخشري ، ما يجعل هذه الظاهرة الأسلوبية تنطبق على القرآن العظيم بشكل أوسع وأعمّ .

فالزمخشري في تفسيره الكشاف يبدي اهتمامه الواضح في هذا السياق أي التصوير - وتصوير المعنى للحواس - دون النظر إن كان من باب الحقيقة أو المجاز ففي شأن قوله تعالى : "وما قدرُوا الله حقّ قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون"⁽⁴⁰⁾، ذلك أنّ تنزيه الخالق سبحانه وتعالى عن أحوال المخلوقين ، من أصول الفكر الاعتزالي ، فما منه إلا أن يردّ التصوير تصوير المعاني للحواس لا غير، والشاهد أن الذي يصوّر المعاني في ذهن المتلقي ، هو ذلك الجانب الكبير من نظم القرآن و بلاغته ، وقدرته على التأثير بأسلوبه المميز والأسر.

2.6. نظم القرآن وجمالية تأثيره :

يركز أغلب المفسرين في تفسيراتهم على الجانب التأثري الذي يحدثه القرآن الكريم في نفوس متلقيه ، والزمخشري في كشفه يقف في العديد من المرات عند تلك التأثيرات ففي قوله تعالى " إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ " (41) ، يقف موقف المحلل الجمالي في التعامل مع المعاني ذات الطابع النفسي " وهذه الآية بنظمها الذي رتبت عليه من إيقاع الغاضين أصواتهم اسماً لأنَّ المؤكدة وتصير خبرها جملة من مبتدأ وخبر معرفتين معا والمبتدأ اسم الإشارة ، استئناف الجملة المستودعة ما هو جزاؤهم على عملهم ، وإيراد الجزاء نكرة مبهما أمره ، ناظرة في الدلالة على غاية الاعتداد والارتضاء لما فعل الذين وقَّروا رسول الله ، من خفض أصواتهم " .

فالزمخشري له نظر ثاقب يدل على بصر بشؤون النفس وما يعرض لها من أحوال الشعور والانفعال ، وبنظم الكلام وترتيب معانيه يجب مراعاة أحوال النفس وتطبيق الكلام على هذه الأحوال ، وفي قوله تعالى : "إِنْ تَقُولْ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَطْتَ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتَ لِمَنِ الْخَاسِرِينَ .. بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ " (42) وقوله تعالى : " بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي " جواب لقوله "أَوْ تَقُولُ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ" فإن قيل : هلاً قرن الجواب بما هو جواب له وهو قوله " لو أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي " ولم يفصل بينهما بآية؟ قلت : لأنه لا يخلو ، أمّا أن يقدم على أخرى القرائن الثلاث فيفوق بينهن ، وأمّا أن تؤخر القرينة الوسطى ، فلم يحسن الأول لما فيه من تبتتر النظم بالجمع بين القرائن ، وأمّا الثاني لما فيه من نقص الترتيب وهو التحسر على التفريط في الطاعة ، ثم التعلل بفقدان الهداية ، ثم تمنى الرجعة، فكان الصواب ما جاء عليه ، وهو أن حكى أقوال النفس على ترتيبها ونظمها ثم أجاب من بينها عما اقتضى الجواب " (43) ، فهو بهذا يحرس أن تكون القرائن متجاوزة حتى تتلاقى هذه النغمات الحزينة متجاوزة متناغمة تتراجع أصدائها الوالهة في أفق النفس فتمس أعماقها البعيدة ويكون الكلام أقدر على إثارة النفس وتحريك الوجدان .

ومن لطائف ما وقف عنده بشأن اللفظة الدالة تعليقه على قوله تعالى: "فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان" (44)، وقوله : "وقفوههم إنهم مسؤولون" (45) ، وتقليبهم تارة ، وتكثيرهم أخرى في أعينهم ؛ أبلغ في القدرة وإظهار الآية" (46) ، وما تلك إلا مقاربات تفسيرية ذات طابع تحليلي جمالي فني من لدن الزمخشري مبينا بها أسرار نظم القرآن وبديع نسجه.

3.6. القراءات وأدبية ترتيل القرآن الجمالية :

يهتم الزمخشري كثيرا ببيان ما ينطوي عليه أسلوب القرآن من شدة الروابط وقوة العلاقات ، ولاهتمامه بهذا الأصل البلاغي في تنظيم الكلام يفضل قراءة على قراءة ، بل ويفضل القراءات التي تستخدم الدرس التفسيري والتي تحمل المعاني القوية.

ويقول تعالى: " فإن قلت ما تقول في من قرأ "ولو كان ذو قربي" على "كان" التامة ، كقوله تعالى : " وإن كان ذو عسرة " (47) ؟ قلت : نظم الكلام أحسن ملائمة للناقصة لأنّ المعنى على أنّ المثقلة إن دعيت أحدا إلى حملها لا يحمل منه شيء ، وإن كان مدعوها ذا قربي ، وهذا معنى صحيح ملتئم، ولو قلت : ولو وجد "ذو قربي" لتفكك وخرج من اتساقه والتئامه"(48). فتلك قراءة تخدم الجانب الجمالي للقرآن الكريم ، فتزيده رونقا وحسن وتُقوي معانيه ، وتلك وظيفة علماء المعاني ، الذين يرشدون إلى ما تحمله النصوص الأدبية من دقيق المعاني وخفي الإيحاءات ، بدراسة هذه النصوص ، وتقليب دلالاتها على وجوه مختلفة ، حتى تتبدى معانيها الخفية ومن الأساليب التي وقف عندها الزمخشري في كشفه أسلوب التكرار حيث استجلى العديد من صوره ليفسر أثره البلاغي في مواقعه المختلفة ، فقد أشار إلى فائدته معبرا " فإن قلت : ما فائدة التثنية والتكرير؟قلت : النفوس أنفر شيء عن حديث الوعظ والنصيحة، فإن لم يكرر عليها عواد على بدئ لم يرسخ فيها ولم يعمل عمله ومن ثم كانت عادة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكرر عليهم ما كان يعظ به ، وينصح ، ثلاث مرات ، وسبعا ليركزه في قلوبهم ويغرسه في صدورهم"(49) ، ففي تكرير آية أو آيتين في كل قصة من قصص الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم ، كما في قوله سبحانه : "وإنّ في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإنّ ربك لهو العزيز الرحيم"(50) ، للزمخشري رأي يقوله : "فإن قلت : كل قصة منها كنتزيل برأسه وفيها من الاعتبار مثل ما في غيرها ، فكانت كل واحدة منها تدلي بحق في أن تفتح بما افتتحت به صاحبها ، وإن تختتم بما اختتمت به ، ولأنّ في التكرير تقريرا للمعاني في الأنفس وتثبيتا لها في الصدور...ولعلّ ذلك يفتح أذنا ، أو يفتح ذهننا ، أو يصقل عقلا لحال عهده ، أو يجلو فهما قد غطى عليه تراكم الصدا"(51)، وهذا دليل على أنّ التكرار يمكن المعنى في نفس المتلقي ، ويوقظ الغافل من بين المتلقين ويدفع عنهم الوهم.

ومن بين الصياغات التي تحدث نوعا من التأثير على المتلقي نلفي الزمخشري يبرز أهمية أسلوب الإلتفات في القرآن الكريم ، لما له من قوة تأثير على نفس المتلقي ، وكأنّه ضربة على أوتارها يزيدا تنبها وإيقاضا أوهزا وتحريكا على حدّ قوله : "فإن قلت : لما عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب؟

وهذا ليس إلا سوى نوع من أنواع الكشوفات الحداثية من قبل الزمخشري ، باعتباره يركز فيها على المتلقي ، ممّا لهذا الأسلوب - الالتفات - من أثر على نفس السامع فيهبز من طبعه ويحرك حسّه ، أمّا بخصوص ترتيب الجمل والآيات في القرآن الكريم ، فللزمخشري رأي بأنّها وقفات جمالية ، يحرص من خلالها على المتلقي وأحوال نفسه ، مثلاً في موافق تهذيب النفس وإرشادها إلى طريق البر وأخذ الوسائل التي تبعد بها عن مواطن الرذيلة يلمح الزمخشري ترتيباً يلائم طبيعة نفس المتلقي وينسق أحوالها كقوله تعالى : " قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ... وليستغف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله "(52).

أيضاً من لطائف تفسير الكشاف ووقوف صاحبه على مواطن الجمال في آيات القرآن الكريم ، الصور البيانية ، فدراسته لصور البيان جاءت عاكسة على صفحتها ذوقه وروحه، كالتشبيه على سبيل التمثيل لا الحصر ، درس أنواعه وبين الفرق بينه وبين الإستعارة كما بين قيمته البلاغية ، من ذلك التشبيه التمثيلي وهو ما يكون المشبه به أمراً له وجود في طباع الناس من غير أن تقع عليه حواسهم كما في قوله تعالى : " طلعها كأنه رؤوس الشياطين"(53) " وشبه رؤوس الشياطين دلالة على تناهيه في الكراهة وقبح المنظر لأنّ الشيطان مكروه مستقبح في طباع الناس لإعتقادهم أنّه شر محض لا يخالطه خير"(54) ، فالتشبيه هنا كان أبلغ في التصوير إلى ذهن المتلقي على الرغم من عدم رؤيته للشيطان وقبح صورته.

وبناء على ما سبق ذكره وما لم يتيسر ذكره من تفسير الكشاف للزمخشري ، يظهر جلياً توظيف الزمخشري لنقافته الواسعة وجعل القرآن كله ، آيات معجزة من خلال تفسيره ، كما استكشف مكان جماله الأسر ونظامه العجيب.

7. قائمة المصادر والمراجع:

- ¹ ينظر: محمد حرير ، دكتوراه جمالية التلقي في القرآن من خلال البحوث والإعجاز ، ص: 143
- ² سورة الأعراف، الآية: 204
- ³ سورة المزمل، الآية: 04
- ⁴ صلاح الدين عبد التواب ، الصورة الأدبية في القرآن الكريم، الشركة المصرية العالمية للنشر، مصر، ط1، 1995م، ص: 87
- ⁵ البقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب، إعجاز القرآن، شرح وتعليق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، لبنان، ط1، 1991، ص: 246
- ⁶ سورة الرحمان، الآية: 46
- محمد رفعت أحمد زنجير، مباحث في البلاغة وإعجاز القرآن، جائزة دبي الدولية للقرآن، دبي، ط1، 2007م، ص: 143⁷

- ⁸ البقلاني، إعجاز القرآن، ص: 299
- ⁹ سورة الطور، الآية: 1-4.
- ¹⁰ سورة الفاتحة، الآية: 2-3
- ¹¹ البقلاني، إعجاز القرآن، ص: 110-111
- ¹² محمد محمد أبو موسى، البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، مكتبة هبة، ط2، القاهرة، 1988، ص: 442
- ¹³ سورة الأحزاب، الآية: 67
- ¹⁵ الزمخشري، الكشاف، ج1، ص: 140
- ¹⁶ لرماني، النكت في إعجاز القرآن، ص: 80-81
- ¹⁷ عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص: 102
- ¹⁸ سورة النور، الآية 38
- ¹⁹ سورة القمر، الآية: 19
- ²⁰ عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص: 20
- ²¹ سورة الفرقان، الآية: 53
- ²² الزمخشري، الكشاف، ج3، ص: 226
- ²³ سورة الأعراف، الآية: 154
- ²⁴ الزمخشري، الكشاف، ج2، ص: 128
- ²⁵ سورة مريم، الآية: 03
- ²⁶ صلاح الدين عبد التواب، الصورة الأدبية في القرآن الكريم، ص: 70
- ²⁷ سورة الواقعة، الآية: 19
- ²⁸ سورة الواقعة، الآية: 33
- ²⁹ محمد رفعت أحمد زنجير، مباحث في البلاغة وإعجاز القرآن، ص: 70
- ³⁰ م ن، ص: 76
- ³¹ سورة البقرة، الآية: 179
- ³² صلاح الدين عبد التواب، الصورة الأدبية في القرآن الكريم، ص: 67
- ³³ سورة البقرة، الآية: 223
- ³⁴ صلاح الدين عبد التواب، الصورة الأدبية في القرآن الكريم، ص: 68
- ³⁵ سورة المائدة، الآية: 77
- ³⁶ سورة الإسراء، الآية: 29

(37) محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الزمخشري أبو القاسم جار الله، ولد في رجب سنة 497هـ بخوارزم العراق، توفي يوم عرفة سنة 538هـ.

(38) ينظر: محمد حرير، دكتوراه جمالية التلقي في القرآن من خلال البحوث والإعجاز، ص: 277

(39) م ن، م ص

(40) سورة الزمر، الآية: 64

(41) سورة الحجرات، الآية: 03

(42) الزمخشري، الكشاف، ج4، ص: 246

(43) الزمخشري، الكشاف، ج4، ص: 107

(44) سورة الصافات، الآية: 38

(45) سورة الرحمن، الآية: 24

(46) الزمخشري، الكشاف، ج1، ص: 300-301

(47) سورة البقرة، الآية: 280

(48) الزمخشري، الكشاف، ج3، ص: 479

(49) الزمخشري، الكشاف، ج4، ص: 95

(50) سورة الشعراء، الآية: 8 وغيرها

(51) الزمخشري، الكشاف، ج3، ص: 263

(52) سورة النور، الآية: 30-31

(53) سورة الصافات، الآية: 65

(54) الزمخشري، الكشاف، ج3، ص: 47